# الغـــايات - ٤

وعقبات الغايات كثيرة لا تعد ولجة لا تحد . قد يهصر المرء عودها ويتخطى قيودها لاتخيفه أفواجها ولا تتقاذفه أمواجها وهو لا يعلم شيئا عن شتاها وصيفها ومناها وحتفها كمايز سبيل وراء طلبته جاس خلال المهول ليراها وتوغل فى النجود ليلقاها . شرق تارة على غير قصد ، وغرب طورا بدون قصد ثم آب بضالته وثاب بحاجته ما فكر . ولا قدر ولا تعب حيث قدر . وقد يهصر هي المرء عودة وتهزم جنوده فتهده ناكصا على عقبيه ، مصفقا بيديه يتنادى بالشوم واللوم ، والطير المشئوم مهما جادل وناضل وعافس ومارس .

١ — وهى إماهنية ملتوية ضل عن بابها وأخفق فى فض حجابها كعقدة الحبل الدقيق يفتلها الرجل بين بنانه وأسنانه ثم لا يوفق إلى حلها .

٢ — وإما صعبة الارتياد والقياد، طريقها ويل، ودونها ليل، إذا ما أردت الانضيق بها نفسك ولا يكبو عندها فرسك ألزمت أن تضيف إلى معارفك جديدا وأن تكون عنالا فريدا . كعدو ضعيف خرج عليك خروجا ثم أخذ فى السماء بروجا هاربا من وحشك خائفا من بطشك ، فلا ترضى السكوت عليه ولا تستعذب الوصول إليه .

٣ — وإما مستحيلة لا ينالك لها برق ولا يساس لها طرق إلا إذا ولج الجمل فى سم وشرب الماء بدم كمن أدلى دلوه فى الهواء ليأتيه بطين أو بماء

٤ — وإما عادية مألوفة يفوز طالبها ويتغلب خاطبها إذا أعد لها مقتضياتها وتمسح فى زاويتها كطالب العلم والمهنة .

وليس لميدان العقبات من سلاح سوى الرأى الخير وشجاعة القلب، يعملان فيها منفردين أو مجتمعين

وإذا هما اجتمعا لنفس حرة  بلغت من العلياء كل مكان

فكل عقبة خرجت فى تذليلها عن هذا الطوق من انسان استحالت على مكابدها ، وتأليت على معالجها لباقى عصاه وتستقر نواه غير أسف على جهد ولا نادم على عهد . وغير بعيد أن تكون بعد مذللة لغيره معاونة ، فقد يتاح لفرد ما يستعصى على أفراد « والناس ألف منهم كواحد »

ومن غريب ما نشاهد أن تعلق النفوس بمغالبة العقبات الضروس مختلف ومتناقض ومتقارب على نظام ما أودع الله فى الآدميين من المواهب ؛ ولقاء ما يحكم به العقل على معنى

الحياة . فمنهم من يرى أن الحياة دار الجائز والممكنات ، خلق الله فيها العقل ثم قال أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر فسرح ومرح ولم يقيد بقيد ولم يقف عند حد .

وعندى أن الاعتراف بمستحيل عادة كما يقولون يفت فى الأعضاء ويضيق دائرة الاجتهاد. فأنت حين ترى أن مواهبك المودعة فيك تضمك فى القمة بين معاصريك وتؤهلك للحصول على غير ما أنت فيه وتلبسك ثوبا يعجب الناس بنسجه وحواشيه قد تكسب خلقا ما كان لك أن تكسبه لو نظرت إلى نفسك نظرة هين النفس وضيع المنزلة . فترى أن تجود اليوم بما كنت تبخل به أمس وتفعل الحسن الجميل على غير رغبة من قبل فيه ، وتحيط نفسك بما لم تحط من قبل به . وقد تتواضع بعد كبر ، وتلين بعد صلابة وتمز بعد تخيل ذل وتشرف بعد توهم انخفاض ، وهل يستوى ذلك القائل لنفسه « مكانك تحمدى او تستريحى » والقائل

سأمضى لما لاعيب فيها وإن لم أستفد إلا عناءا
وأطلب حاجة إن طوحت بى أصابت بى الحمام أو العلاءا

لايستويان مثلا . فمن يتكر أنك حين تسمو بنفسك هذا السمو لابد من تميزك على أمثالك ممن وقفت أمانيهم وانحصرت مراميهم فى رخيص القدر مبتذل ، وأى لذة كهذه التى يمكن أن تتسلى بها ولو وقف بك السعد على طرف الهجران ولم تسعدك الحدثان ؟ فحب التميز طبيعة الانسان وغير الانسان ، والتأميل فى الشىء كالحصول عليه إذ كل منهما يؤدى إلى راحة النفس أولها إلى حين وثانيهما أبد الآبدين ولنفكهة نقول :

هذا إبليس ربه فيه قسم ، ولكنه لايقطع العشم فلا يزال يمنى نفسه بالدخول فى رحمة وسعت كل شىء بحجة أنه ماتجبر ولا استكبر ولا علا ولا غلا وأنه إذ قال خلقتنى من نار وخلقته من طين اعتز بخلقه أمام خالقه ، وذكر ماهو أقرب إلى حقائقه ولا شك أنه إذا لم يهون على نفسه ماوقع وامتنع منذ جريرته بأن قول ربه فيه حق مبرم ووعده له صدق عتم قبل يوم الدين وبعد يوم الدين ، وإن رحمة ربه قريب من المحسنين وقف على المتقين لقطع اليأس عليه كل سبيل ، ولما أنس الى خيال هذا التأميل : فأراح نفسه طول عمر الدنيا ، وغر نفسه بنفسه فاستتر فى هذه الفنيا إلى يوم معلوم

ومن الناس من يرى أن الدنيا عقبة لأن نظامها وما فيها من أحداث سبقت بها ارادة واحتواها علم فلا تصل فيها الى أكثر مما وجدت لنفسك ، وإن حلقت فى الفضاء واتخذت سلما للسماء ، ولا تحرم من عظيم مقسوم وان كفكفت غربك واستوقفت سربك وتركت الدنيا تدور بأهلها وتلتهى من فصلها فكل شىء فيها مقدور وبمقدار وعلى هذا النحو قال بشار :

طبعت على ما فى غير مخير هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر وأمس وما أعقبت الا التعجبا

إلا أن أصحاب هـذا المذهب لايمتنعون لمجرد قول القائل بل لابد من ممارسة وقياس لمجهوداتهم واقتناع بما يقاسون فى مختلف حالاتهم التى يخطئها التوفيق كثيرا فيقع الواحد منهم فى قيد هذا الاعتقاد أسيرا .

ومنهم قانع بفاتحة ألطافه وخاتمة مطافه لا يسب دهرا وان لم يعظم له أجرا ولا يأمن الرغد ومراوة العيش فى ظل اليسر والرخاء وهؤلاء هم الضعفاء قلبا وعقيدة يودون لو أغلقت أبوابهم فى أوجه الناس ليعيشوا وراءها راضين بالرخيص والمهين وحتى لا يتصلوا بأحد فى قليل ولا كثير لتجدنهم أحرص الناس على الحياة وانهم لعقبة المجتمع الانسانى وبأمثالهم تذل الامم ويتحكم الغاصبون وهم فى ضلالهم يعمهون لايبدون حراكا ولاينصبون شباكا وموعدنا المقال التالى .

عبر الفتاح الجزر

---

# الضمير

الضمير كلمة صغيرة حوت معنى كبيرا وانفردت بالقوة والجلال ، وهى اسم لذلك الملك المطوف العفوف الذى تغذيه الحكمة فيحيا وينمو ويزداد تأثيره ويقوى سلطانه . له فى كل شخص عرش يتبوأه . ولكن شاء الله أن يكون عند قوم عزيز الجانب قوى السلطان وعند آخرين ضعيفا مهيناً ، فأذا انفرد بالقوة عند قوم ذادهم عن الحرمات بسيفه العضب . وقطع عليهم سبيل السوء بقوته الجبارة ، ووجههم إلى الكمال والفضيلة فى غير عنف ولا شدة ، واذا قدر له الضعف عند آخرين تجاوزوا أمره واندفعوا فى طريق المنكرات ينغوس لا تعرف معنى الحياء والخجل إلا كما تعرفه حيواتهم الأعجم وإن امتازوا عنها بالعقل والتفكير وكم من أناس راحوا ضحية سلطانه وقضى عليهم أن ينالوا فى الحياة شقاء لا يعدله شقاء : أنزل العزيز عن منصبه حين حرم عليه النفاق والتزلف ، وأودى بحياة البرىء لانه كرهه فى إرضاء السفهاء والنزول على رأيهم . وقضى على الفقير أن يبيت على الطوى لأنه حال بينه وبين بذل ماء وجهه فى السؤال ، وما زال يكرم يزين له الاجر على تضحيته بنفسه فى سبيل رفعة وطنه حتى أرداه فى الهلاك الدنيوى فكان سببا فى اكتسابه أطيب الاجر ،